

الشاعر عبود الأحمد وثلاثية الوطن المنفى المأساة

أحمد السعدي*

عضو الهيئة التعليمية، قسم التشيع والمعارف الإسلامي بجامعة طهران، فريديس الفارابي

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/٤/٢٢؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/٩/٦)

الملخص

يعكس شعر الأحمد واقع الانسان العراقي الذي تجرع الفصص نتيجة حماقات سلطة حاكمة وتجاهل العالم المتحضر. وقد طالت هذه المصائب الأحمد ليرمي على الحدود ويعيش مهجرا ويموت في بلاد الغربة. ترك الأحمد ديوان شعر تمحور حول ثلاثية هي الوطن، المنفى، المأساة وهي مصطلحات تغلفت إلى كل منظومته الشعرية ولم يكن لبعضها أن ينفك عن البعض الآخر وعند محطة الوطن يقف الشاعر ليجت عن بعض بقايا الوطن ونفسه دون أن يغيب عنه لحظة وسط محطات الضباب وتأتي محطة المنفى لترسم خارطة طريق نحو الرمس ليخوض صراع الأمس واليوم في وجع متعاقب ومع كل ذلك يحاول أن يطل على الوطن وأما محطة المأساة فقد تظاهرت حلقاتها لقتل الشاعر فكان هو والهجوم تزامن فالفقر وفقدان الاحبة والمرض والغربة والوحدة وضعت يدا بيد لتنتهي به الى مقبرة الغرباء.

الكلمات الرئيسية

عبود الأحمد، الوطن، المنفى، المأساة.

مقدمة

اعتمد البحث على المنهج التحليلي الوصفي.

أهداف البحث:

١. التعريف بالشعر المهجري العراقي
٢. التعريف بالشاعر عبود الأحمد
٣. الكشف عن ثلاثية الوطن، المنفى، المأساة في شعر الأحمد

الضرورات:

١. لقد عاش الشاعر الأحمد ومات مغموراً ومن هنا تأتي ضرورة تعرف الأساتذة والأدباء والأوساط الأدبية على تراثه.
٢. اهتم الأدب بدراسة الشعر المهجري في بعض البلاد كأمریکا ولم يأخذ الأدب المهجري العراقي طريقه إلى الدراسة فمن الضروري إذن الوقوف عنده.
٣. إن الشعر المهجري العراقي يعبر عن مأساة ممتدة بدأت بأهل البيت وهذا ما يجعل الكشف عنها أمراً ضرورياً.

الأسئلة:

١. من هو عبود الأحمد؟
٢. كيف انعكست ثلاثية الوطن، المنفى، المأساة في شعر الأحمد؟
٣. كيف رسم الأحمد ثلاثية الوطن، المنفى، المأساة في ديوانه؟

الفرضيات:

١. إن ثلاثية الوطن، المنفى، المأساة تبرز بوضوح في شعر الأحمد
٢. إن الانشداد إلى الوطن سمة الشاعر الأحمد
٣. رغم التغرب الذي عاشه الأحمد لكنه لم يغيب عنه الوطن
٤. إن المأساة انعكست بصورة واضحة على ديوان الأحمد وحياته

خلفية البحث:

لم يدرس الشاعر عبود الأحمد قبل هذه المقالة أبداً، فهي الدراسة الأولى من نوعها فقد اتسمت بالجدة فيما يلي:

١. استطاعت التعريف بشاعر لم يتعرض له قط
٢. كشفت عن المحاور الأساسية في شعره
٣. كشفت عن تواصل الوطن والمنفى والمأساة في شعره
٤. كشفت عن الإبداع الأدبي والصدق والتفاعل في شعر الأحمد

مع الشاعر

ولد عبود احمد اسد النجفي الملقب بالأحمد في عام ١٩٤٧م في النجف الأشرف في أسرة تنتمي بولائها للعترة الطاهرة. دخل المدرسة وأكمل مرحلة الإعدادية ولكنه لم يدخل الجامعة ليتوجه نحو الأعمال الحرة في العراق والحجاز. كتب الشعر الشعبي والفصح العمودي والحر. صدر قرار التهجير بحقه وحق أسرته إلى إيران سنة ١٩٨٠ شأنها شأن الآف الأسر الأخرى. فاكتوى شاعرنا عبود الأحمد بنار التهجير ليكون شاهد عصر الوحشية وثمانينات القرن العشرين المزدهمة بالممارسات الهجومية حيث يموت الناس بالمجان في زمن ضوضاء المدنية وشعارات حقوق الإنسان ويصم العالم سمعه عن سماع أهات المعذبين. فكل ما يجري لا يهم لأن الأرض تعيش تقسيماً سايكسيكوريا لم يقتصر على ما هو معروف ومشهور: أي العالم الأول والثالث وإنما تصنّف على أساس اللون والمكان والانتماء واللغة والمحتد.

فالجلاذ في بلادنا ديمقراطي اذا كان يحمل الموت للمستضعفين. والعراق انصع نموذج تجلت فيه هذه الحقيقة التي لاتمت الى الحق بصلة.

لقد أهلك طاغية العراق الحرث والنسل ورمى بعشرات الآلاف على الحدود بحجج واهية فيما رزح أضعافهم في السجون او لقتهم طاحونة الإعدامات، مع كل ذلك لم نسمع صوتاً غربياً أو عربياً يدين ما حدث.

ولم تعكس تلك المآسي شاشات تلفاز أو إذاعات أو صحف ومجلات، كادت كل تلك الأحزان أن يطويها النسيان بتقادم الزمان ولولا كلمات الشعراء الحمراء لم يبق من قصة الضحية شيء يذكر.

وإذا كان الشاعر اليوم قد غاب عنا فديوانه لوحة حزائية يتجلى من خلالها بكاء آدم وحواء الذي لا يعرف النهاية.

وقد حاولنا في هذا المقال أن نقف عند مفردات هذه اللوحة الاساسية وهي الوطن، المنفى، المأساة.

محطة اللقاء

في مشهد المقدسة وفي سنة ١٩٨١ جمعنا حي الطالقاني. كانت أسرة الأحمد التي فقدت أباه في العراق قبل التهجير تضم أمّاً وأربعة اخوة وأختين كان الأخ الأكبر ابراهيم يكتب الشعر الحر ويتواصل مع الصحف الصادرة آنذاك.

لم يكن وضع الأسرة المادي مطلوباً رغم أن البعض كان يعتمدهم في توزيع المساعدات على المحتاجين إلا أنهم لم يفكروا بأنفسهم ولم يستغلوا الوضع فكانوا طريقاً أميناً لإيصال المال لأهله.

وقد دخل الأسرة حزن لازمها منذ أن غادرت العراق بالإضافة إلى ترك الوطن والغربة وذلك ان إحدى الأختين مرت على بيت أهلها القريب من بيت زوجها لأمر وكلها أمل في الرجوع؛ لأنها تركت رضيعها في المهدي فصادف ذلك هجوم جلاوزة البعث على بيت أهلها ليقتادوهم وبقي صغيرها الذي لم تره أبداً بعد ذلك. لقد تحولت هذه الحادثة إلى كآبة لازمت الأم ولم تشعر بالسعادة قط.

إن هذه الحادثة كانت نذير مآسي ستشهدها الاسرة لاحقاً حيث ودعت ابراهيم والذي عاش الوحدة بكل اشكالها ولم يترك زوجة او ولداً، الى مثواه الاخير في مقبرة جنة الرضا الواقعة خارج مدينة مشهد والتي يأهلها الغرباء ويوحشك سكوتها القاتل فنهارها ليل وقد استقرت في مكان جعلها غريبة بكل معنى الكلمة. مات ابراهيم إثر سكتة القلب ليمرّق صراخ أمه سكوت الليل حينما نقل جثمانه على آلة حدباء وكان يستشرف مستقبله هذا حينما قال في قصيدة له:

ومن سكتة القلب أخشى السقوط أبي سادير ظهري لكل الشروط

ولم يمض على رحيل ابراهيم سنة حتى فارقت الام الحياة وهكذا ليس ذلك البيت الحزن. لقد هد الرحيلان عبوداً وهذا ما يتجلى في قصيدته "رسالة رثاء للأهل" كما سننقل

مقاطع منها وكأنهما غلباه فداهمته الأمراض من كل جانب ومكان وحالت بينه وبين العمل فحرم أصابع الرجل في البداية حيث قطعها الطبيب الجراح ولم ينته الأمر عند ذلك وفي عملية جراحية أخرى قطعت القدم لإصابتها بما أصيبت به الأصابع.

في هذه الأثناء قرر الانتقال من مشهد إلى قم وكان ذلك ربيعاً لشعره فلم يكن يجد الأجواء المناسبة في مشهد ولكن قم أحدثت نقلة نوعية في قصائده نتيجة لوجود شعراء وانفتاحه على حركة أدبية كانت تحفل بها المدينة. وقد استقر كحارس في مكتب أحد المراجع والمكان واسع جداً يقضي ليله وحيداً، وطالما كان يتصل بي هاتفياً في ساعات متأخرة من الليل ليقراً لي قصيدة كتبها أو كنت أزوره فينقلني بشعره الى موطن أحلامه، وكنت أسأله لماذا لا تتزوج فيجيبني: أنا بهذا الوضع المأساوي أتزوج ليرث شخص آخر المأساة!

وأخيراً كانت سكتة القلب التي خطفت ابراهيم جاءت هذه المرة لتخطف عبود ويرحل الى مقبرة جنة الرضا فيلتحق بأخيه في مكان إريد له أن يكون ملتقى الغرباء.
مات الأحمد دون أن يرى موطنه وملاعب صباه أو يدفن في وادي سلام الغري.

رحلة في الديوان

إذا كان للشعر قواي وأوزان يتحرك عبرها الشاعر معبراً عما في ضميره، فإن هناك قصة لها رموزها أو مفاتيحها التي يمكنها أن تجعله يهيم وتختلف هذه الرموز من شخص لآخر فقد تكون جمالا أو قيماً أو أشياء أخرى. وتزدان الأبيات بطابع خاص بتنوعها لتكشف عن مدى تأثر الشاعر وانسيابية الحروف والكلمات في القصيدة مما تمنحها موسيقى تبرز من خلالها أحساسيس الشاعر والتياحه.

ومن الشعراء الذين تكهروا برموز ومفاتيح صاغ منها منظومته، الفقيه عبود الأحمد في واحته الشعرية. وللواحة هذه قصة ففي ظروف هي أشبه بعسر الولادة رأى الديوان النور. فالفقر يعصف بالأحمد والمرض يقض مضجعه والغربة تهدد كيانه والشوق الى الوطن حلم كان قد خالطه اليأس، وفقدان الأم والأخ في وقت قريب ترك تحت الأضلع لوعة وفي العين دمة هذا بالإضافة إلى آباء النفس الذي يندر أن ترى له نظيراً.

في هذه الأجواء وفي سنة ١٤١٧هـ طبع الشاعر قصائده البالغة ٣٤ قصيدة منها قصيدتان في الغدير وقصيدتان في الإمام الحسين فيما كتب قصيدة تحت عنوان "الشيخ المخلد" يرثي فيها الشيخ المرتضى الأنصاري. فيما يطغى على الديوان قصائد هيمنت عليها

مفردات كانت نزيه مهجة الشاعر وتبدو بوضوح أكثر في قصيدتي "اهتزاز الذاكرة" و"لاتدع جرحك في أقتية الغير".

وقد اختار الشاعر اهتزاز الذاكرة عنواناً لديوانه فكانت الذاكرة مطلعاً لقصة مأساوية ربما كان الديوان بعض ملامحها.

والذاكرة شريط ممتد يهزه الشاعر فيحلق به نحو الوطن ولكنه في الوقت نفسه يهزّ (فعل مضارع مبني للمجهول) فيرتحل الوطن:

واهز ذاكرتي فاسقط في الوطن وتُهز ذاكرتي فيرتحل الوطن

(عبود، ١٤١٧: ٢٨)

إن العنوان يعبر عن صراع ومعاناة لايعرفان النهاية فهو يطارد حتى في ذاكرته.

واهتزاز الذاكرة عندما يصبح العنوان الكبير مما يعني أن كل المفردات الأخرى تدخل ضمن مسلسل جدلية تتمخض عنها جدليات يخوض فيها الوجود والانعدام معركة النزف ومن الطبيعي أن يكلل كل ذلك بانتصار أو هزيمة.

وإذا كان هوراس يعتقد بأنّ فنية القصيدة تتجلى من خلال وجود تناسق وانسجام مع ظواهر الحياة وخصائص الانسانية. (عواد، ١٤٢٩: ٣٠)

و«أن ظواهر العالم الخارجية هي التي تقود الشاعر الموهوب لأن يكشف ويتخيل واقع الانسان الحقيقي الذي يكون التعبير الشعري عنه صادقا ومبدعاً» (الشابي، ١٩٦١: ٢٤-٢٥).
و«أن الشعر هو فن من الفنون وجميع الفنون هي وليدة الموهبة وأن الروح التي تتراءى من وراء الفن هي عبارة عن اشراق من الطبيعة يقبّس الشاعر منها صورته الشعرية» (عفيفي، ١٩٧٨: ٥٨).

وأن الصدق الفني في الشعر يتحقق اذا كان الشاعر فتانا وليس داعية ومداحا لرجال السياسة ووجوه المجتمع كما يؤكد نقاد مدرستي الديوان وأبلو. (عواد، ١٤٢٩: ١٠٧) فهذا ما يظهر في شعر الأحمد بوضوح، فلم يكن شاعر المرأة أو الخمر أو الملوك وإنما هو شاعر قضية خضابها خمر هياج أبنائها.

فنحن أمام قلب شغف يتقد وروح مليئة بخواطر ظمأى تريد الرواء وعاطفة متأججة بحب، وصور تعود بنا الى فاجعة الحدث وتنفخ فينا الوجد الأبدي المكهرب بالحسرات القائمة فتجعلنا نحس برغبة شديدة في البكاء حيناً والغضب الهادر المتوقد ثورة على الواقع المرحينا

آخر. إن الشاعر وليد أرض مقدسة وارفة في الإحياءات طوّحت به غياهب الفجاج وضلّت به قدم الليل وزلت في سحيق كهوف الغربية الموحشة المكتظة بأشواك تحاصر الألم الدفين. وهذا ما يجعله يسافر جريحا عبر قصائد الديوان، فيسخّر كل الأدوات الأدبية ليرسم ملامح مرحلة من أشد مراحل التاريخ حزائية فيعتمد الرمز في دلالات الصور الفنية والأوزان الموسيقية القصيرة التي تتميز بالنغم الغنائي الحزين وهي ظاهرة تكشف عن الكآبة الرومانسية والحنين إلى تربة الوطن، كما يعتمد التلميح ثم ينتقل إلى التصريح المفجع. وأخيرا إن الديوان شرح فني لتجربة انسانية وحقبة لا يدركها إلا من عاشها.

الوطن في شعر الأحمد

الوطن هو المنزل الذي تقيم به وهو موطن الإنسان ومحلّه. (الفراهيدي، ١٤١٠: ج٧، ٤٥٤؛ ابن منظور، ١٤٠٥: ج١٣، ٤٥١)

حينما يولد الإنسان في أرض ويعيش فيها تمتد جذوره إلى أعماقها فيصبح جزءاً لا يتجزأ منها، وحياته رهن وجوده فيها فهو يحيى بها وبالنأي عنها يتحوّل إلى جثة لاتحط فيها روح، هذا الانشداد يتجلى بشكل واضح في الإنسان ولا يخفى عن طبيعة الحيوان، فالطيور تحلّق في سماء الحرية ولكنها ترى في بيتها فضاء لاتسعه السماء.

ومهما كانت البلاد ورغم كل ما يعانيه الفرد فيها إلا أنه لا ينفك عنها، اللهم إلا أولئك الذين يعانون أزمات نفسية وهذا ما يعبر عنه كلام الأدباء والذي يعكس واقعا لا يشوبه شك: بلادي وان جارت عليّ عزيزة وأهلّي وإن شجّوا عليّ كرام

وينقل لنا التاريخ قصصا تصب في هذا المصّب. لقد تزوج معاوية بن أبي سفيان ميسون بنت بجدل الكلبية البدوية لينقلها من جشوبة الصحراء إلى نعيم قصوره التي يحلم برؤيتها أبناء القصور وكان يظن أنه قد استطاع استمالتها إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك فقد اتخذت قرارها الصارم بالعودة الى خيمتها في البيداء لتقول:

خشونة عيشتي في البدو أشهى إلى نفسي من العيش الطريف
فما ابغي سوى وطني بديلا فحسبي ذلك من وطن شريف

(البغدادي، ١٩٩٨: ٥٠٥-٥٠٦)

ويقول شاعر آخر وهو محمد بن محمود المعروف بابن النجار:

مالي أراك حزينا باكيا أسفا كأن قلبك فيه النار تستعر
فقلت إني بعيد الدار عن وطني ومملىق الكف والأحباب قد هجروا
(الصفدي، ١٤٠٣: ج ٨، ٨)

وينتمي شاعرنا الأحمدي إلى أرض السواد وهو اسم لازم الوطن من أقدم العصور.
والسواد خضرة الزروع والأشجار التي كانت تظهر لمن يخرج من البادية إلى العراق.
(الحموي، ١٣٩٩: ج ٣، ٢٧٢)

وهو يمتد بامتداد الوطن بنخيله السماء وأشجاره الوارفة وزهوره التي صاغت اروغ لوحة
والتي يبعث فيها دجلة والفرات الحياة بكل قطرة من مائها ولكنها امتزجا بالدم القاني لابنائها
البررة لتعلن النباتات موتها الجماعي، وتكتسي الأرض ثوبها الأحمر مما جعل الشاعر يقول:
يا أيها الوطن الدماء يا حاملا وجه الحسين وكربلاء
(عبود، ١٤١٧: ٩٢)

ويقف عند وحدة الوطن دون ناصر ومعين وقد تلاشت اجزأوه ولم يعد وطن الشمل فأخذ
يبحث عن بعض بقاياها وعن الشاعر الذي غادره قسراً ويرسم مقابلة بين وطن عائق البعد
وشاعر عائق الحزن والغربة، والعناقان حلقة تضيق الخناق في كل لحظة.
وطني منفرد الخطوة إذ يبحث عن بعض بقاياها وعنّي/ عائق البعد، وعانقت
لحزني واغترابي (عبود، ١٤١٧: ٥٣-٥٤)

ولم تعد ذاكرته تقوى على أن تتجاوز محطات الضباب ففي أقصى المدى وطن فارقه
أهله وأهل يعرجون إلى السراب:

وتُهز ذاكرتي... فتسقط في خلاياها محطات الضباب/ أي المسارب سوف
تسلك حين يغزوها الوداع/ البحر خلف حروفها... وهناك في أقصى المدى/ وطن
بلا أهل وأهل يصعدون إلى السراب (عبود، ١٤١٧: ٢٩)

وإذا كان الكل حاول أن يكون بوصلة لعله يشير إلى المجهول؛ إلا أن المشكلة تكمن في أنها
بوصلة لاتشير إلى اتجاه:

تركوك وسط عرائهم/ لافرق ما بين المدينة والقفار/ الكل "بوصلة" تشير بلا
اتجاه/ تركوا لوجهك ربع زاوية يغطيها الغبار/ لاشيء غير الموت في صور يعلقها
الجدار/ الموت أيضا يرقب الآتين من مدن الحصار (عبود، ١٤١٧: الغلاف)

ورغم الجدار الحائل بينه وبين الوطن يحاول التسرب الى الوطن عبر الذاكرة التي قد تتحول إلى سم زعاق عندما يفقد صاحبها القدرة على أن يقف ولو على الطول:

يجتاحني وطني/ يجتاز نبضي والكمائن ترصد الاتين من مدني القتيلة

(عبود، ١٤١٧: ٩٠)

وتعاني الذاكرة اهتزازين فهي بين هز الشاعر لها وهزها من قبل يد مجهولة:

واهــــــــــــز ذاكرــــــــــــتي فاســــــــــــقط في الــــــــــــوطن
وتهــــــــــــز ذاكرــــــــــــتي فيرتحــــــــــــل الــــــــــــوطن

(عبود، ١٤١٧: ٢٨)

ومع هذا الصراع يعمل على هز ذاكرته لكنه يسقط في أساه:

وأهز ذاكرتي... أفتش عن تراب عانقت ذراته/ قبلاً خطاي/ يرتد في بصري

فاسقط في أساي (عبود، ١٤١٧: ٣٠)

وهنا يسافر الوطن في دمه فيحمل حقايبه المملوءة باوردته وأحزانه الثقيلة مشدود

العينين في ليل حالك الظلمة:

وطني يسافر في دمي... ودمي يطارد صحوتي/ والكل يركض خلف ذاكرتي/

وحقايب ملى بأوردتي وأحزاني الثقيلة/ مشدودة عيناى في كل المسارات التي/

رفضت خطاي بليل محنتي الطويلة (عبود، ١٤١٧: ٩٠)

وحيثما يغطس الوطن في بحر البعد اللجي لن يكون له اثر الا في ذاكرة حب واشواق

حياة الشاعر:

وطني يا وطننا تحمله ذاكرة الحب/ وأشواق حياتي (عبود، ١٤١٧: ٥٤)

وإذا كانت هناك أسماء كثيرة غازلت ذاكرته أو حاولت أن تبدل جوعه الا أنها لا يمكنها

أن تصمد، لأن هناك قبلة يهفو اليها وهو الوطن:

كم من الأسماء في منفاى قد مرّت سراعا/ غازلتني علها تبدل جوعي/ بسنا

اسمك هيهات ففي حرفك محراب خضوعي (عبود، ١٤١٧: ٥٤-٥٥)

إن كل مآسي الوطن لم تتمكن أن تغيب عن الأحمد صور مشاهد تعبّر عن اصالة العراق

وتخلد امام كل معاول التخريب، تلك هي القباب التي يتوجه اليها:

رقّ قلبي لها وهاج حنيني هاجس البعد أن يطول غيابي

شأقتني نحوها مجمع الأهل والصبا والليالي العذاب
والعهد التي تقضين فيها واجتماع الإخوان والأصحاب
(عبود، ١٤١٧: ١٥٥)

ويبقى وطن التآلق حتى بدموع على جفنيه هي حبات ضوء وقناديل فضة:
وأخيرا وطني... يا وطن الصحو وجرح الكبرياء / فعلى رغم انتكاسات الليالي
ودموعي / أمني يشرق من بين النخيل الوارفة / وطني يا وطننا يأتلق الدمع على
جفنيه / حبات من الضوء / قناديل من الفضة / عرساً للجروح النازفة / سوف
ينهار جدار البؤس / تنهد السدود الزائفة / ويفني الماء في مجرى السواقي
الناشفة / ونرى فجرك في أفق السماء / نجمة بيضاء في كل المدارات / وقطب
الكون / فيها شعلة من كربلاء (عبود، ١٤١٧: ٥٨-٥٩)

وإذا كان الوطن بعيد المسافة فهو الحاضر حيث ينطلق من القلب إليه، وهما وجهان
لحقيقة واحدة فالقلب هو الوطن الصغير الذي تنطبع فيه صورة الوطن الكبير:
هكذا أنبأني القلب / وطني... إن استمع شكواك هل تسمع مني؟ / ليلتي
كابوس الأمي وصبحي وجع يمتد ما بين ضلوعي / ونهاري مطفأ مثل سنيني
وشموعي / أيها الطاعن في صدري مواويل الجراح / حينما يجتاح هذي الروح في
أعماقها عصف الرياح / وصدى قيثارة الوجد نواحي (عبود، ١٤١٧: ٥٢)
وهو النبض الذي يحيى به:

وطني هو النبض الذي أحيا به أيلام من يحيى بنبض خابي
سأظل أطرق سمعه حتى أرى أيملاً مني أم يرد جوابي
(عبود، ١٤١٧: ١١٩-١١٧)

ويشاطر الوطن المه عندما ما يبحر في لحظة صحو شاردة نحو مشنقة العمر:
مبحر يا وطني في دمي اليأس وصمتي / وانهيار الروح في لحظة صحو شاردة /
صخرة في فمي الخوف وتلتف على عنقي خيوطا باردة (عبود، ١٤١٧: ٥٦)

المنفى في شعر الأحمد

إذا كان الإنسان هو الوطن بذكرياته وأريج ترابه فالمنفى انقلاب وتمرد ونزع هوية، وهو
مكان النفي. (مجمع اللغة العربية، ١٩٧٢: ج٢، ٩٤٣)

وليس هناك من يرتضي ركوب مثل هذه الأخطار ولكنها العواصف التي تقلع الأشجار عن جذورها، ليلقي نظرة الوداع على كل تاريخه ويخط على أحلامه، والأحمد أرغم على الانحناء:
ذات يوم قلعتني عن جذوري العاصفة... / ورمتني فوق بعض الأرصفة (عبود،
١٤١٧: ١٢٩)

وفي المنفى عذاب يرسم خارطة طريق نحو الرسم مما يسلب الشاعر الحياة فيأول الى جماد لانبيض له ولاحس:

يصاحب تيه أيامي / عذاب دونه رسم / كأني من جماد الأر / ض لانبيض ولا
حس (عبود، ١٤١٧: ١٣٨)

وإذا كانت طيور الأرض تسكن إلى عش عند المساء فالمنفى لايعرف رحمة المأوى وليس هناك من يسمع النجوى:

أنا المطرود عن وطني فلا أرض ولا مأوى
تناجي الكل أهاتي ولا من يسمع النجوى
(عبود، ١٤١٧: ١٣٧)

وهنا يمتد التيه والاعصار بامتداد عمر مزدحم بالاهات وأقدام مسمرة بالقفار:

تولى عمرك الاعصار والصجرا والجذب
فأقدام يسمرها قفار الارض واللحس
وخطوك في رمال التيه مغروس ومنجذب
(عبود، ١٤١٧: ١٣٦)

ليستقل سفن الإبحار التي يتقاذفها المد والجزر:

حطمتني سفن الإبحار في مد وجزر (عبود، ١٤١٧: ٥٧)

وبين محطتي الميلاد والموت يختلف الأفراد فهناك منعم لايشعر بالألم وآخر ولد للعناء ليقف الشاعر المنفى ضمن طابور من شتت أعمارهم الضنى وسارت بهم الإقدام بلاقرار:
ما بين ميلادي وموتي / عمر يشتهه الضنى / وخطى تسير بلاقرار (عبود،
١٤١٧: ٧٧)

وفي هذا العمر صراع بين الماضي والحاضر، ماض تتراكم فيه أحلى ذكريات الطفولة من صفاء وبيوت الأهل والأقرباء ووجوه الاحبة وبراءة وأزقة لم تؤكد لها ألعاب صفار

لايفارقونها إلا عند المساء ليحلموا بها في لياليهم الوديعه، وحاضر مرعب يخبئ وجع الكهولة فوق أرصفة المنايا، هنا يتعاقب الوجعان في عملية القتل مما يعني أن المنفى يستبطن معادلة جديدة هي معادلة صراع الموت:

يتعاقب الوجعان في قتلي/ وجع الكهولة فوق أرصفة المنايا حين يشركه صباي/ يتداخل الألمان في روحي ... فينتبذان في/ أقصى زواياها/ بلاداً خبأت فيها... أحاذر أن يراها عابر يهوى/ شقاي/ فيها دفنت طفولتي... ووضعت فيها بعض/ أشياء الثمينة (عبود، ١٤١٧: ٣٠)

وتطل علينا مفردة اخرى من مفردات المنفى وهي الضياع وتأتي كنتيجة لروح غدر وأحقاد وشجت عليها عروق وتوارت عليها أصول:

لفنا البعد والزمان اغتراب وتولت بسحقنا الأحقاد
فعدونا الى الضياع استباقا فسبقنا الأيام وهي طراد
واستباحت دروبنا عثرات فكبا العمر والخطى والقياد
(عبود، ١٤١٧: ١٢٧)

وإذا كان المنفى يستبيح الكهولة ويسرق الهوى فان الشاعر يحاول أن يكون عصيا على كل ذلك:

لن تستبيح كهولتي يا ايها المنفى وتسرقني هواي/ وجعان في عمري المسافر في رؤاي/ قد يستنيق كلاهما... أو قد ينام كلاهما/ لافرق هذا مالح مجّ يشوقني ظمأى/ والآخر العذب الذي روّى دماي (عبود، ١٤١٧: ٣٣)

ومن المنفى يحاول أن يطل على الوطن:

وعلى بوابة المنفى أرى عمري مشنوقا/ على وهج احتراقاتي وموتي/ وطني هل تشتهي أن لاترى يوم وداعي (عبود، ١٤١٧: ٥٧)

المأساة في شعر الأحمـد

ثلاثية الأحمـد بدأت بالوطن وتعرج بها الطريق لتحط رحالها عند المنفى لتنتهي دراما الشاعر عند محطة المأساة التي لم تنفك عنه الا بعد أن اسكنته دار الغرباء في مقبرة بسطت يديها لأهل النوى. لقد حرم الشاعر من ابسط الحقوق، وفقد أعز الأحبّة، فلم يتزوج نتيجة للظروف الصعبة، ومن الطبيعي أن لا يرى امتداده من خلال الذرية، ولم يشعر

بالاستقرار والراحة، وفارق الأهل والأصدقاء دون رجعة، وداهمه الفقر، ومزقه المرض، كل ذلك سلب منه لغة الغرام وشعر الحب، وكانت حبيبته الوحيدة الوطن المغيّب.
في هذه المحطة حلقات تظاهرت فيما بينها على قتل الشاعر. تبدأ الحلقة الأولى ببطاقة شخصية كشفت عن صاحبها من خلال المأساة وليست التسمية:

هذا أنا إن كنت تسأل من أنا وجد غريب غادر الأفراحا
(عبود، ١٤١٧: ١٢٨)

وينطلق في نفس الصد من دائرة الفرد إلى دائرة العنوان الكبير الذي ينتمي إليه وهو الحد الفاصل بينه وبين الآخرين من أبناء الدنيا الذين يرفلون بخيراتها في العالم وربما كانوا السبب في حرمان شعبه:

هذا أنا شعب وتاريخ يسير إلى دمار (عبود، ١٤١٧: ٧٨)

وهل هناك رزية أشد من انهيار شعب وتاريخ.

لقد أجاد الشاعر في رسم الهوية وبقي عليه أن يحدد زوايا مثلث العمر:

ألم يختصر العمر كما يختصر السيف تواريخ التمنيّ / خنجر يشحذُ حدّيه
على جرحي عذابي / طعنة أخرى لكي أحتو على لحدي ترابي (عبود، ١٤١٧: ٥٤)

هكذا هي خلاصة الجدل الدائر لعمر مهدد بالسيف والخنجر والظعن.

ولعل بإمكاننا أن نقف عند زوايا المثلث لتتعرف على محطات كل زاوية، والأسى أحد هذه المحطات لقد ارتادت روحه الأسى فتساقطت الأيام خاوية يلونها الخراب:

يرتاد في روعي الأسى... تتساقط الأيام / خاوية يلونها الخراب / وصدى
السنين المتعبات يضيع في جدران عمري والشعاب (عبود، ١٤١٧: ٢٨)

ومن أشد ألوان الأسى الهجران فقد نبذته الدنيا وأسمائه وأهله وأصحابه وحتى رفاقته:

نبذتني هذه الدنيا واسمائي وأهلي وصحابي / نبذت حتى رفاقي / سفني
الغرقى وبحر الشك عات / يا رفاقا كلما ناديتهم بالقرب ازدادوا ضياعاً / وصحابا
صنعوا تاجا من الوحل / من الطين... على أوجههم / يزهو خداعا / ها أنا اركن في
الظلمة والصمت وأقفي / سحب سوداء ما مدت شرعا / والذي يؤلني ليس
انفرادي وافتقادي / إنما زيف جموعي / لم تقل حتى لمن مات وداعا (عبود، ١٤١٧:

ولم تدعه الهموم فكأنهما تَوَّامان:

أنام على لظى بين الحنايا
شبيب على الجراح فكل عمري
وشابت كل أمالي وماتت
واصحو والهموم هي الضجيع
جراح والمسبيل دم نجيع
وجرحي في تأججه رضيع

(عبود، ١٤١٧: ٣٥)

وهنا تدلهم الخطوب، ليل شاحب لا يدع نافذة فجر تطل من خلالها على الأمنيات:

ليلك الشاحب مرآة به يفتال فجر الأمنيات / وطن، أهل، صحاب، والليالي

الضائعات (عبود، ١٤١٧: ١٢٢)

وصوت مبحوح ليس بوسعه أن يعبر عن الشجى:

أنا الوجد المضيّع عن بلادي
أنا الصوت المفرد بُحَّ شجوا
وقد أودى به الزمن الوضيع
ولا قلب له يصغي سموع

(عبود، ١٤١٧: ٣٧)

وبكاء صامت يعمق النزف في جراح القلب:

يعمّق في جراح القلب نزفا
بكاء صامت وأسى مروع

(عبود، ١٤١٧: ٣٤)

وجناح مكسّر هدّه العصف الذريع دون أن يكون بإمكان صاحبه أن يأوي الى وكر:

أنا الطير الذي عبر الدياتي
بلاوكر يظل ودون مأوى
ويحلم أن يضلّ الله نخيل
يكرّس جُحّه العصف الذريع
تغازله المواطن والربوع
ومن شط الفرات شذى يشيع

(عبود، ١٤١٧: ٣٧)

وسهر مورق لا يعرف الهجوع:

أنا السهر المورق في المنايا
ويأبى أن يمر به الهجوع

(عبود، ١٤١٧: ٣٦)

وهنا تضيق الدنيا بصدرك مهما كان العالم رحبا لاحبا، وتتوالى عليك الطعنات وانت

منتصب لاتقدر أن تذب عن نفسك:

تضيق بصدرك الدنيا
وكونك عالما رحب

كأنك شـاخص الأحـزا
أوحـدك في جـمـيم
ن للظنـات منتصـب
العمر مظلـوم ومـستلب
(عبود، ١٤١٧: ١٣٥)

وعندها يحترق العمر في مهب المآسي:
أحرق العمر في مهب المآسي
وخداع الأحلام محض سراب
ودروب الغريب دون إيـاب
(عبود، ١٤١٧: ١٥٦)

فلا يرى الشاعر سوى مسلسل مصائب وكأنها تتسابق فيما بينها:

مصائب تتبع الأخرى
خـذوني ايها الاحـباب
وحرر يتبع الحرراً
كيمـا أرتـوي قطـرا
(عبود، ١٤١٧: ١٤٧)

فهي تنشب اظفارها في زمن التيه الذي يختطف في كل يوم حبيب:

زمان التيه لا يفـو
فمـا أبقي لنا أهـلا
إذا ما أنشـب الظفـرا
ومـا أبقي له عـذرا
(عبود، ١٤١٧: ١٤٦-١٤٧)

فتبدو الاحلام سرايا ويخنق الأمل فتفقد الحياة حياتها:

سـراب كـل أيـامي
وإن عاينتـها بحـرا
(عبود، ١٤١٧: ١٤٧)

وفي مثل هذه الظروف لا يجد مأوى سوى الذاكرة فيهزها وتهز هي الأخرى، ولكن الهز لا يأتي بشيء سوى سقوط كل الآمال الدفينة:

وأهز ذاكرتي... فأسقط في ضفاف النهر/ نورسة حزينة/ وتهز ذاكرتي...

فتسقط كل آمالي الدفينة (عبود، ١٤١٧: ٣١)

وتأول الأمانى إلى تابوت تتوالى عليه الطعنات:

أنت ما بين الكآبات وتابوت أمانيك نثار الطعنات (عبود، ١٤١٧: ١٢٢)

إن المسلسل المحزن المكتظ بالأوجاع يهون عند الأحمد أمام مصيبتين أتيا على كيانه من الأساس وقلعا جذور شجرته، إنهما فقد الأخ والأم وقد كانتا الضرية القاضية التي جعلته يعلن إفلاسه:

دعووا لي كل أحزاني دعوني أحرق العمرا
على قبرين في صدري امضاً القلب والصدرا
وهاتوهم ولو طيفا لأحیی مرة أخرى
فيا "ابراهيم" يا "امي" ويا أحزاني الكبري
تركتم ألف معولة بفكري تنهك الفكرا
(عبود، ١٤١٧: ١٤٨)

لقد هيمن فقد الأحباب على قصيدة رسالة رثاء للأهل فارتدت ثوبها الأسود وأعلنت الحداد العام وقررت أن يكون الحزن سرمداً والليل مسهداً فهي تخطف القارئ عواطفه الدفينة ليجود بها بل يجود بنفسه.
ولم يجد سبيلاً إلا إلى الركون إلى اغنية الجروح أمام رحيل شريك العمر أخيه "إبراهيم":

أيها الموروث جرحا في شفاف القلب غنته جروحي/ يا شريك العمر في هم
وجوع ونزوح (عبود، ١٤١٧: ٦٤-٦٥)

فالباب لن يطرق بعد اليوم، وليته كان يملك ثمن الذبح ليستسلم للجزار:
أين أودعت بقاياك... وفي أي المسارات/ أضعت الخطو إذ شدت أوهامك في
شاطئ/ منفاك لكي تعرف بعدك/ لن ترى أوجه من احببت غادرت صحابك/
أبدأ لن يطرق اليوم سوى كفك بابك/ أنت لاتملك حتى ثمن الذبح لكي يسلمك
الجزار/ في عطف إلى السكين إذ يقطع زندك (عبود، ١٤١٧: ١٢٢-١٢٣)
وتهيج به الذكريات وهي أنسه الوحيد ليطلب من أخيه لحظة انتظار لبيته الحزن:
قف قليلاً... أيها الخل النبيل/ وانتظرنني لحظة أخرى على درب الرحيل/ كي أبت
الحزن ياهذا الذي خلفتني في وجع المنفى قتيل (عبود، ١٤١٧: ٦٦-٦٧)
ومن جمر نظى المأساة يشرق أمل الشوق فلعل الاخ يأخذه الى العراق:
خذ يدي يا أيها السائر في درب الطويلق/ قد حملت الجمر حدّ الاحتراق/
فأطفئ الشوق بنهري العراق/ يا ابن أمي وتمهّل لوداعي/ فأنا بعدك أدمنت
التياغي (عبود، ١٤١٧: ٦٧)

فيقدم أشلائه ثمنا للذكرى:

خذوا أشـلالـي الحـرى وهـاتوا ذكـركم عـطـراً
(عبود، ١٤١٧: ١٤٥)

ولكن الآمال تتبدد ليكون القبر خاتمة الخطى:

انا الحـي الـذي يـمشـي تجـاذب خطـوتي قـبرا
(عبود، ١٤١٧: ١٤٩)

وإذا لم تجد كل تلك المحاولات فهناك محاولة أخيرة كانت نهاية المطاف عجت بها
قصيدة "الغدير الحي" و"دموع خلف الابتسام" وهي بث الشكوى لحامي الجار أميرالمومنين
والزهراء البتول:

علي يا ولي الله شكوى	إليك وأنت للشكوى صغي
أنقى هكذا أبداً حيارى	وأنت لكل مظلوم حمي
تحوط بنا النوائب محذقات	وعصف الحادثات بنا عتي
وهذا شعبك المظلوم عانى	يعيش به الحقود السامري
على الإيمان ساومه كفور	وفي الأعناق سيف ساطوي

(عبود، ١٤١٧: ٢٦-٢٧)

ويخاطب الزهراء عليها السلام :

وقل بنت النبي إليك أشكو	عذاباً ماله يوماً نزوع
فيا زهراء هل عاينت شعبا	وأبناء له ظلماً أريعوا

(عبود، ١٤١٧: ٣٩)

وفي غمرة الشكوى بدت ملامح الرحيل الأبدي فالمشتكى إليهما رمزا معاناة ضاقت بها
الدنيا فاختارا عالم الخلود وهكذا كان الأحمد.

النتائج

١. ينتمي الأحمد إلى بلد ضرب جذوره عبر التاريخ وقد انعكس ذلك على روحه وعقله وشعره.
٢. يحاول الشاعر تكوين ثلاثية تعبر عن رحلة عمره وهي: الوطن، المنفى، المساءة.
٣. لقد واجه الوطن مآسي أشدها تهجير ابنائه ومنهم الشاعر.
٤. شكل المنفى للأحمد قلع جذور وخارطة طريق نحو الرمس فسلبته الحياة.
٥. عانى الشاعر في المنفى التيه والإعصار وازدحام الآهات وأقدام مسمرة بالقفزار ومعادلة صراع وجع الصبا والكهولة فوق الأرضفة، ولكنه يجهد ليتغلب على كل ذلك من خلال التسرب إلى الوطن عبر الذاكرة والأشواق رغم كل الموانع، ورغم احتراقات عمر المنفى.
٦. كانت المساءة رفيق عمر الأحمد القهري، وقد حرمته أبسط حقوقه: الراحة، الزواج، الأولاد، الأهل، الأصدقاء، الحب، لتنتهي به إلى موت الغربة فيدفن بعيدا عن الوطن.

المصادر والمراجع

١. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤٠٥هـ). لسان العرب. قم: نشر أدب الحوزة.
٢. الأحمد، عبود (١٤١٧هـ). اهتزاز الذاكرة. قم: دانش.
٣. البغدادي، عبدالقادر بن عمر (١٩٩٨م). خزانة الأدب. بيروت: دار الكتب العلمية.
٤. الحموي، ياقوت (١٩٧٩م). معجم البلدان. بيروت: دار إحياء التراث.
٥. الشابي، أبوالقاسم (١٩٦١م). الخيال عند العرب. تونس.
٦. الصفدي، صلاح الدين (٢٠٠٠م). الوايفي بالوفيات. بيروت: دار إحياء التراث.
٧. عفيفي، محمد صادق (١٩٧٨م). النقد التطبيقي والموازنات. القاهرة.
٨. عواد، عبدالحسين مهدي (٢٠٠٨م). الأصول النظرية لنقد الشعر التطبيقي المقارن. بيروت: العارف للمطبوعات.
٩. الفراهيدي، الخليل بن احمد (١٤١٠هـ). العين. ط ٢، قم: مطبعة الصدر.
١٠. مجمع اللغة العربية (١٩٧٢م). المعجم الوسيط. ط ٢، طهران: ناصر خسرو.